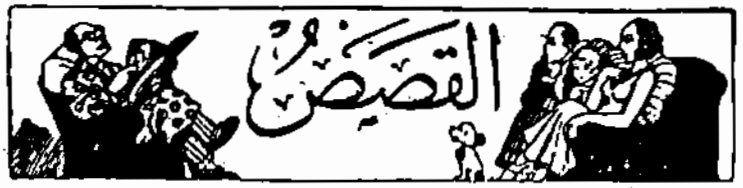


# العش الخالى

عن الانكليزية

انتهى يوم العرس وسافرت آخر بنت كانت فى الأسرة مع عريسها الجديد ، وذهب آخر فريق من المدعوين وهم يضحكون ويمرحون فرحا بالعرس ، وأصبح المنزل هادئاً هدوءا فوق العادة كأنه خال . فالأب والأم وحدهما فى منزلهما الكبير ، وكان كل منهما يتجنب النظر إلى وجه الآخر وينظر إلى الموائد التى عليها بقايا الوليمة ، فمن زجاجات الشمبانيا إلى أطباق الفاكهة فأنواع الحلوى المختلفة

وقال الزوج لزوجته : « أليس بالمنزل غرفة لم يدخلها هؤلاء الضيوف ؟ » فقالت : « غرفة مكتبك »

قال : « تعالى نذهب إليها » ثم نظر إلى الساعة وقال : جاء وقت العشاء فلنبدل ثيابنا للمائدة »

ثم أبدل وإياها ثيابهما ، وتذكر وهو خجلان أنه منذ سنوات كان ينتظر هذا اليوم؛ يوم تتزوج بناته ويتركن له المنزل وأمهن معه

وقد كان يغار من بناته فقد كن يشغلنها عنه بمطالبهن الكثيرة ولم يجرؤ على الاعتراف حتى أمام نفسه بغيرته منهن ، وإنما كان يشعر بذلك ويخجل من شعوره ، ولكى يكفر عن هذا الشعور كان يقوم بواجباته نحو أبنائه خير قيام فلم يهمل قط واحداً من هذه الواجبات ، ولكنه كان دائماً يشعر بتلك الغيرة من كل شىء يحول بينه وبين زوجته. وقد ظل كذلك إلى هذا اليوم . ففى العام السالف تزوجت بنتاه ( كاتلين ) و ( كلير ) وفى بداية هذا العام تزوجت جيرالد واليوم تزوجت الأخيرة وهى فرانسين ، وقد كان يحبهن جميعاً ولكنهن كن عقبة فى سبيله

واليوم لن تحدث بالمنزل الضجة التى كان يثيرها البنات وصواحبهن ، وكانت الأم تصرف كل وقتها فى خدمتهن ومرضاتهن وزوجها لا يثق بأنهن السبب فى ابتعادها عنه؛ بل كان يخطر له فى أكثر الأحيان أنها تجعلهن ستاراً لتختفى وراءه ، وكانت تفتنه بجمالها ويزيده شغفا بها اشتغالها عنه ، وقد تزوج منها ولكنه لم يأنس بزواجها فقد كانت دائما فى حالة تشبه المزلة ، وكانت تهرب منه فلما رزق منها ببناته الأربع زاد ابتعادها عنه واستمرت حياتها الزوجية خمسة وعشرين عاماً وهو ينتظر ، وكان ينظر إلى المرآة ويبتسم ابتسامة مرة حينما يذكر أنه تزوج منذ ربع قرن ، وهو مع ذلك لا يتقدم إلى زوجته إلا كما يتقدم الشاب إلى فتاة صغيرة

وكان جميلا قوى البنية ، وكانت زوجته لا تزيد مع مرور الأيام إلا جمالا . وكانت شجاعتها تزيد مع هذا الجمال

نظرت إليه الآن وقالت وهى تشير إلى زجاجات الخمر والأطباق التى على المائدة : « ما هذه الفوضى التى تركت لنا يا برانينو »

وكان هذا الاسم هو الذى ينادى به فى الطفولة، فنظر إليها وقال بهدوء : « إن اسمى هو جون »

فابتسمت أمام هذا التقريع الهادئ . وتناولت معه طعام العشاء ؛ فقال وهو يتنهد تنهد الرضى : « منذ كم سنة لم نتعش وحدنا ؟ » فقالت : « منذ سنوات طويلة . مسكينة فرانسين ! لقد كان التعب الشديد بادياً عليها »

قال : « ولكن من أجل المصادفات أنها تزوجت فى هذا التاريخ »

فقالت : « لماذا ؟ »

ونظرت إليه بعينيها الجميلتين الزرقاوين فأجاب: «ألا تذكرين أن هذا هو تاريخ زواجنا ؟ »

قالت : « آه ! لقد تذكرت . إننى كنت ناسية »

فمض شفته وبدا عليه الغضب لنسيانها ذلك اليوم . ثم ملك روعه . وشعر بخيبة الأمل فى السعادة التى كان يرجوها لأن زوجته لا تشعر بمثل شعوره هذا . وذهبا إلى غرفة المكتب بعد العشاء وكانا يسمعان من الغرفة حركة الخدم وهم ينقلون ما على الموائد من الأطباق ، وكانت الزوجة واقفة بجانب النافذة تنظر فى الظلام إلى أعالى الأشجار وما عليها من أعشاش العصافير وإلى المرات المظلمة فى الحديقة الجميلة التنسيق . وكان الزوج جالساً أمام مكتبه ، وقد أسند ذقنه بأصابعه

وكانت الزوجة تتذكر خلو المنزل من الموسيقى والغناء

والضحك واللعب والحديث فقالت : « ألا يبدو المنزل كأنه غير مأهول ؟ »

فهز رأسه وعادت هي إلى الكلام فقالت : « أظن جيرالد ستأتي في العام المقبل »

كانت دائماً تفكر في بناتها ، ولم يستطع حملها على التفكير فيه، فشعر الآن بخيبة أمله ، لأنه حتى في هذا الوقت لم يستطع الوصول إلى قلبها . ولكنه سكت فلم يجبها وعادت إلى الكلام فقالت : « وأظن كلير تستطيع أن تأتي شهراً في الخريف ... مسكينة فرانسين ! إنني أرجو لها السعادة »

عاد إليه شعوره بالغيرة من بناته ولكنه كتمه كعادته وسكت ، فقالت : « لقد سمعت من بنت عمي دوليس في الأسبوع الماضي — ولم أستطع إخبارك إلا بعد انتهاء العرس — سمعت أنها تدير الآن نادياً للفتيات في جنوب لوندرا »

تخفق قلب جون وقال : « ثم ماذا ؟ »

قالت : « وقد اقترحت علي أن أنضم إليها فهي في أشد الحاجة للمساعدة . وقالت إنني سأكون منفردة هنا مستوحشة بسبب غيبة البنات وهي ترى أن أقيم معها وآتي إلى هنا يوم في الأسبوع . وأنت تتغيب عن المنزل طول النهار وفي إمكانك قضاء بقية الأسبوع في غيبتي وحدك »

دارت الدنيا أمام عينيه وشعر بالذل . ولكن عزته المجروحة دفعته إلى إظهار ذله فقال : « افعلي ما تريته »

قالت : « وإذا كنت تريدني فإني مستعدة لأداء واجبي »

فقال : « الواجب لا دخل له هنا »

فقالت : « إننا سنقرر الرأي في هذا الموضوع فيما بعد »

فرأى الزوج أن أي قرار خير من الشك وأن عليه أن يواجه الليلة مالا بد من مواجهته فيما بعد . وهو يريدها ولكن على غير هذا الشرط فقال : « إنني أرى أن تقرري الرأي الآن »

فالتفتت ونظرت إليه في صمت . ولكنه لم يطق أن ينظر إليها . وارتكن إلى ظهر الكرسي وكانت أمامه رزمة من الخطابات فأخذ يقلبها بصورة آلية ويقرأ العنوانات فأجابته : « سأذهب إلا إذا كنت في حاجة إلي »

فكان رده المختصر : « لست في حاجة إليك »

فتركت الغرفة في الحال وتركته بين أنقاض أحلامه

وبعد أسبوع كان الزوج جالساً وحده . وكانت الزوجة قد ذهبت في اليوم التالي للعرس إلى بنت عمها . وكانت نفس الزوج لا تزال متألمة من جرح عزتها . وشعر بالتعاسة لاعتقاده أنه كان من الحماقة أن يتركها تذهب دون أن يقاوم ، فهو يشعر بأن الحياة بدونها لا تطاق

وقف أمام النافذة التي وقفت أمامها منذ أسبوع وفكر فيها وفيما تعمله الآن . وكانت صورتها الكبيرة على الحائط فقال في نفسه : « ترى كيف حالتها الآن ؟ لعلها في خطر ! »

وإنما أتى بهذه الكلمة إلى ذهنه أن أعصابه كانت شديدة الاضطراب . ولم يكن يطيق النظر إلى صورتها

وكانت الغرفة مملوءة بصور أخرى لبناته فنظر إلى تلك الصور وهو يبتسم ابتسامة مرة وقال : إنها انتصرت على طول الخط ، وإنني هزمت على طول الخط كذلك

ونظر إلى الساعة ، وكان الليل قد انتصف وتشبثت بذهنه فكرة الخطر ، وفكر في مقدار المسافة التي يقطعها إذا أراد زيارتها ، ولكنه شعر بأن ذهابه في مثل هذه الساعة ليسأل عن صحتها لا يمكن أن يكون إلا حماقة . واختصم في ذهنه العقل مع الغريزة فكانت الأخيرة هي الغالبة

وكان الكل قد ناموا ، ولكن فتحه جراج السيارة لا يستغرق إلا دقائق ، ثم يخرج السيارة ويوقظ السائق ، فيخبره بأنه ذاهب إلى جنوب لوندرا ، وأنه ليس في حاجة إليه

وفعل ذلك ، واخترقت السيارة الطرق ، وهو يزيد في السرعة قبل فوات الوقت . ولم يكن قد زار من قبل ذلك النادي الذي تقيم فيه زوجته ولكنه كان يعرف عنوانه ، وكانت الغريزة وحدها هي التي تقوده الآن . ثم تلاشى حكمها ، وتحكم العقل فأسند ظهره إلى الكرسي ، وأخذ يضحك من حماقته ، وهو يخترق الشوارع الخالية .. إلى أين يذهب ؟ لا إلى شيء !

وأخذ يدق الجرس . . فلو رآه أحد في الطرق الخالية لحاله سكران !

ووصل إلى النادي ، فنزل من السيارة ونظر إلى النوافذ ،

فلم ير إلا دخانا يتصاعد . وأصغى فسمع أصواتا تدل على وجود حريق فى النادى ، فوضع يده فى فمه ، وصفر ليدعو الجنـود ، وأخذ يحاول كسر النافذة بالآلات التى يصلح بها السيارة . وفى الوقت الذى كان يصيح فيه باستدعاء المطافئ استطاع الدخول من الفتحة التى أوجدها فى النافذة فجرح رأسه ويداه ، وكاد الدخان يخنقه فتراجع حتى تمكن من وضع منديل فى فمه ، ثم دخـل مقتحما وأخـذ يصيح « يا هيلين ! يا هيلين ! » فخرجت إليـه سيدة قال لهـا : « إن المـكان يحترق ! أين زوجتى ؟ »

قالت : « إنها نائمة فى الطابق الأعلى »

ثم صعدت معه وصاح باسمها فخرجت ودهشت وقالت « لماذا جئت يا جون ؟ »

فقال : « أسرعى بقليل من الماء »

فأسرعت وعند عودتها تذكر أنه لم يشرح لهـا سبب مجيئه فقال : « إن النار فى البناء ! لا ينبغى أن نضيع الوقت » ثم وضع منديلا مبلولا آخر حول فمها وبل المنديل الذى حول فمه ونزل معها فى وسط الدخان المتصاعد ، فلما رآها يكاد يغمى عليها حملها بين يديه ، وكانت الحرارة شديدة حتى يكاد يغمى عليه أيضا ، وخرج بها من النافذة

* * *

كانت الساعة الثالثة صباحا عندما عاد الزوجان إلى منزلهما ولم يتبادلا إلا كلمات قليلة وكانت الزوجة شديدة الشحوب وقالت : « لقد جئت إلى هنا يوم العطلة السالفة . ولـكنك لم تجئ فيه »

قال : « نعم هذا هو الواجب على فى هذه الظروف »

قالت : « أى ظروف ؟ » فلم يجب . وقالت .

« ما الذى جعلك تأتى فى هذه الساعة وكيف علمت ؟ »

قال : « لا أعلم ولـكن كان مستوليا على شعور غريب بأنك فى خطر فأتيت وأنا أعرف أن إطاعة هذا الشعور حماقة ، ولـكنى لم أستطع منع نفسى . وما كنت أصدق القصص التى من هـذا القبيل وكنت أسمع صوتا يقول لى إن زوجتك المحبوبة فى خطر »

فسكتت مدة طويلة ثم قالت : « لم أكن أعلم أنك تحبنى إلى هذا الحد »

قال : « إنى رجل محتجز يا عزيزتى وقد كنت أعتقد أنك تدركين حبى لك . ولـكننى لم أكن أستطيع الوصـول إليك لأنك تهربين منى »

فقالت : « نعم لأنى خائفة »

قال : « خائفة ! ! من أى شىء ؟ »

فقالت : « خائفة من إظهـار محبـة أكبر من المنزلة التى وضعتنى فيها . إن لى عزة نفس ولذلك كنت أجعل بنانى ساترا حتى لا ترانى »

قال . « وكيف عرفت المنزلة التى أضعك فيها »

فقالت : « عرفتها من ذهابك بعد العشاء مباشرة إلى مكتبك كأنك لا تريد أن تكون معنا »

قال : « إننى كنت أفعل لأنى لا أريد أن أرى صـواحب بنانى ولا تلك الضجة التى تحول بينى وبينك »

فقالت : « وكيف لا تسر عندما أكلمك عن بناتنا ؟ »

قال . « كيف عرفت ذلك ؟ »

فقالت : « إنك خير من يقوم بواجبات الأب . ولـكنى عرفت ذلك من ملاحظتى مايبدو على وجهك أثناء الحديث عنهن . وفى يوم الأربعاء الماضى أردت أن أمتحن سرورك وكان خطاب بنت عمى قد وصل إلى . ولـكننى لم أعره عناية . وقـد جربتك بالتكلم عنه وقلت فى نفسى إنك إذا سمحت بذهـابى فإن ذلك سيسحق قلبى . وأنا لم أكن أريد الذهاب إلى بنت عمى »

فقطب حاجبيه وقال : « إنك تذكرت عزة نفسـك ولم تتذكرى عزة نفسى! وقولك دلنى على أنك تريدين الذهاب. وقد كنت فى غيابك تعسا للغاية » ثم وقف فجأة وقال : « لقـد كنا مغفلين »

وتناول كفها بين كفيه وقال : « أظننى وجدت نفسك بعد هذه السنوات ولن أتركك تفلتين بعد الآن »

فقالت هامسة : « إننى أحبك كما لم أحب أحدا فى الوجود »

ثم وضع ثغره فوق شعرها الناعم اللامع وقال : « لك أن تتكلمى عن بناتنا الآن فما دمت أنك كنت تتخذينهن ساترا بينى وبينك . فإنى لا أغار منهن »

فابتسمت وقالت : « لقـد أدركت نفسك أيهـا الطفل الـكبير »

! ؟ !

* قال الشاعر الألمانى جوته لصديقه أكيرمان *

* كل امرئ يأتى عليه حين من *

* دهره يظن فيه أن آلام *

* فرتر إنما كتبت *

* له خاصة *

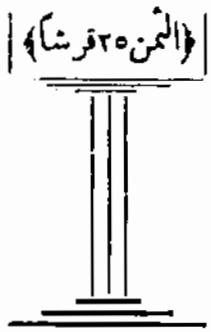


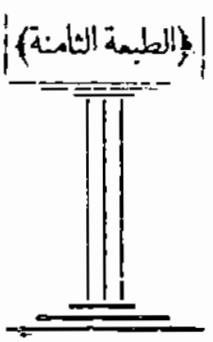

للأستاذ أحمد حسن الزيات

هى القصة العالمية الواقعية الخالدة للشاعر الفيلسوف ﴿ جوته ﴾ الألمانى

ثمنها ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد .. وهى تطلب من جميع المكتبات ومن إدارة الرسالة

ت : ٢٧٤٩٠

مطبعة الرسالة